مجلة أبوليوس
المجلد 08 العدد 02 –جويلية 2021
الصفحات: 57- 67

حدود اللغة وحدود الأمة: الاتصال والانفصال

The Limits of Language and the Boundaries of the Nation: Connection and Separation

د. نادركاظم*
جامعةالبحرين/البحرين
naderkadhim@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021 /06/15 تاريخ القبول: 2021 /07/06 تاريخ النشر: 2021 /08/31

ملخص البحث:

تعد اللغة أداة مهمة لصنع التجانس وتوحيد الامة خلق الإحساس بأخوة أو قرابة متخيّلة بين متحدّثيها، لكن هذا لا يعني أن اللغة الواحدة ينبغي أن يترتّب عليها وجود أمّة واحدة تسعى إلى إقامة كيانها السياسيّ. والسبب أن اللغات تشكيلات تاريخية لا تتضمّن شيئًا فيما يتعلّق بأولئك الذين يتحدّثونها. ولا ينبغي للغات بأي شكل من الأشكال تقييد الحرية الإنسانية عندما يتعلّق الأمر بتحديد الأمّة التي يريد الإنسان أن يكون جزءًا منها.

والحقيقة أن للغة وجوهًا عديدة، وهي تتلوّن، في ارتباطها بالأمّة، بأكثر من لون، فهي قد تكون عامل اتصال وربط بين جماعة ما مرةً، وعامل انفصال مع الجماعات الأخرى مرة ثانية، إلا أنها قد تتحوّل، في المرة الثالثة، إلى مسألة هامشية وثانوية وعديمة الأهمية بحيث لا تثير أية اعتبارات هوياتية بين الأمم.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الأمّة، الجماعة، الهوية.

Abstract:

Language is a key element for creating harmony and unifying the nation, creating a sense of brother-hood or imaginary kinship between its users. However, this does not mean that a single language should result in the existence of a single nation that seeks to establish its political entity. Actually, languages are historical formations that contain something in relation to those who speak them. Languages should, by no means, limit human freedom when defining the nation in which a man belongs to.

Actually, language has many facets, and perpetually changing in its connection with the nation. On one side, a language may serve as a means of connection and communication among the members of the community; on the other side, it could be a factor of separation of some other groups within the speech community. However, language changes and does not raise any identity cleavages among nations.

Keywords: Representation, language, nation, identity, the other.

* المؤلف المراسل

لم يحظ محدّد من "محدّدات الأمة" باهتمام وتركيز عند القوميين العرب كما حظيت اللغة. فمنذ نجيب عازوري حتى عزمي بشارة، ومرورًا بساطع الحصري وميشيل عفلق وآخرين، كانت اللغة أساس القومية العربية والرابطة الأساسية لشعوب العالم العربي. وقد استعار أغلب هؤلاء الفهم الألماني (من يوهان هيردر ويوهان فيخته) عن اللغة التي تكوّن متحدّثيها، وعن عبقرية اللغة التي تعكس عبقرية الأمة وخصوصيتها بين الأمم. وعلى صعيد آخر، عوّل بندكت أندرسون تعويلًا كبيرًا على اللغة، وعلى اللغة المطبوعة على نحو خاص، في تكوين الأمة كجماعة متخيّلة، إلا أن أندرسون لم يكن يفهم اللغة كمكوّن إثني أو ثقافي لجماعة ما، بل كان يراها مهمة وأساسية كوسيلة تواصل تسمح للبشر بتخيّل قرابة فيما بينهم وبين الآخرين الذين يتحدّثون اللغة ذاتها، والذين يقرأون الصحف والروايات بلغة واحدة، فضلًا عن كونها، في الحالة الأوروبية، تأتي لتحلّ محلّ اللغة اللاتينية المقدّسة التي كانت حكرًا على النخبة، والنخبة الدينية بالدرجة الأساس. اهتمّ أندرسون بالتحوّل الذي أحدثه شكلان كتابيّان في أوروبا القرن الثامن عشر: الرواية والصحيفة، واعتبر أن توسّع طباعة الرواية والصحيفة كان عاملًا "مهمًا جدًّا لولادة الجماعة المتخيّلة للأمة"[1].

وعلى هذا، فليس ثمة ما يمنع أن يتخيّل الإنسان العربي نفسه جزءًا من الأمة العربية كجماعة متخيّلة وبأدوات تخيّل الأمة، لكن هذا لا يمنع، كذلك، من أن تتكوّن أمتان متباينتان على الرغم من أنهما تتحدّثان اللغة ذاتها، حتى لو كانت هاتان الأمتان متقاربتين جغرافيًا كما هو الحال بين أستراليا ونيوزلندا، أو بلجيكا وفرنسا، أو النمسا وألمانيا، أو كندا والولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال لا الحصر. إن اللغة، عند أندرسون، أداة تجانس وتوحيد تصنع "الخيال القومي"، وتخلق الإحساس بأخوة أو قرابة متخيّلة بين متحدّثيها، لكن هذا لا يعني أن اللغة الواحدة ينبغي أن يرتّب عليها وجود أمة واحدة تسعى إلى إقامة كيانها السياسي. وهذا ما كان إرنست رينان يعنيه عندما كتب بأن "اللغات تشكيلات تاريخية لا تتضمّن شيئًا فيما يتعلّق بأولئك الذين يتحدّثونها. ولا ينبغي للغات بأي شكل من الأشكال تقييد الحرية الإنسانية عندما يتعلّق الأمر بتحديد" الأمة التي يريد الإنسان أن يكون جزءًا منها.

والحقيقة أن للغة وجوهًا عديدة، وهي تتلوّن، في ارتباطها بالأمة، بأكثر من لون، فهي قد تكون عامل اتصال وربط بين جماعة ما مرةً، وعامل انفصال مع الجماعات الأخرى مرة ثانية، إلا أنها قد تتحوّل، في المرة الثالثة، إلى مسألة هامشية وثانوية وعديمة الأهمية بحيث لا تثير أية اعتبارات هوياتية بين الأمم. ومن أجل بسط المسألة أكثر دعونا نتأمل في هذه الحالات المتضاربة في كيفية التعامل مع مسألة اللغة في أكثر من سياق تاريخي.

1. اللغة الرابطة واللغة المفرّقة: حالة الهند والجزائر وبلجيكا

يعترف الدستور الهندي، اليوم، بـ22 لغة رسمية منها الهندية، والتيلوجوية، والكانادية، والتاميلية، والمالايالامية، والماراثية والجوجارتية، والبنجابية، والبنغالية، والآسامية وغيرها، إلا أن الطريق إلى هذا الاعتراف مرّ بعقبات كأداء، وبموجات من الاضطرابات والصراعات التي كانت اللغة واحدة من أكبر محركاتها. وأصل الحكاية تبدأ في اللحظة التي

أدرك فيها قادة حزب المؤتمر الوطني الهندي، إبان سنوات النضال من أجل الاستقلال، أهمية اللغة كعامل أساسي في تحريك الجماهير في ولايات الهند متعدّدة اللغات. ومنذ العام 1917 "ألزم الحزب نفسه بإقامة أقاليم لغوية في الهند الحرّة"[2]. وقد شجّع كل من المهاتما غاندي وجواهر لال نهرو، أول رئيس وزراء بعد الاستقلال، هذا التنوع اللغوي في الهند، ودفعا باتجاه إعادة تنظيم حزب المؤتمر الوطني على أساس اللغة. إلا أن الرأي قد تغيّر عشية الاستقلال في أغسطس 1947. فبعد تقسيم البلاد على أساس الدين بين باكستان المسلمة والهند الهندوسية، ارتأى قادة الاستقلال، ونهرو كان في مقدّمتهم، أن تقسيم البلاد على أساس اللغة قد تكون خطوة خطرة تنتهي إلى تفكّك الهند كدولة موحَّدة، وخاصة أن الكثير من الولايات والمدن الهندية تضمّ جماعات لغوية عديدة مثل مدراس وبومباي اللتين تضمان جماعات عديدة تتحدّث اللغات التاميلية والمالايالامية والتيلوجوية والكانادية والأردية والكونكانية والماراثية والجوجارتية والسندية والجندية وغيرها[3].

كانت وجهة نظر نهرو – وغاندي أيضاً - تتمثّل في أن وضع الهند، بعد التقسيم، لا يحتمل إقامة الأقاليم اللغوية، وأن هذا القرار ينبغي أن يتأجّل إلى حين تستقرّ الدولة وتضمن وحدتها. وعندئذٍ يمكن فتح هذا الملف الذي أصبح حسّاساً بعد الاستقلال. كان ذلك هو الرأي الذي انتهت إليه لجنة من القانونيين والموظفين الحكوميين شكّلتها الجمعية التأسيسية لهذا الشأن بعد الاستقلال، ورأت هذه اللجنة أن تقسيم البلاد على أساس اللغة قرار لا يمكن تأييده في ظل الأوضاع السائدة في البلاد. وما لم يكن في الحسبان هو أن هذا الرأي الذي انتهت إليه اللجنة أثار "استياء قطاعات كبيرة من الجمعية التأسيسية، فمعظم أعضاء حزب المؤتمر من متحدّثي الماراثية أصرّوا على إنشاء ولاية مهاراشترا المستقلّة، وبالمثل رغب أعضاء الحزب الذين مثّلت الجوجارتية لغتهم الأم في مقاطعة خاصة بهم"[4]، وكذا كان الحال مع متحدّثي اللغات الأخرى. ومن أجل تهدئة هذا الاستياء الواسع، شُكّلت لجنة جديدة برئاسة نهرو هذه المرة، وانتهت إلى رفض مبدأ المقاطعات اللغوية على أساس "إن اللغة ليست قوة رابطة فحسب، بل مفرّقة أيضاً"، واعتبرت أن التقسيم على أساس اللغة يعبّر عن ميول انفصالية وانشقاقية تهدّد وحدة الهند.

وما هي إلا أشهر بعد هذا القرار، حتى اندلعت موجة من الاضطرابات على أساس اللغة في أكثر من مكان، فهناك حملة تطالب بتوحيد متحدّثي اللغة الكانادية في ولايات مدراس وميسور وبومباي وحيدر آباد. وحركة أخرى تطالب بتوحيد متحدّثي اللغة الماراثية في مهاراشترا العظمى، كما طالب متحدّثو التيلوجوية بولاية خاصة بهم في أندرا براديش، وكذلك فعل متحدّثو المالايامية الذين طالبوا بولاية خاصة بهم. لم يقف الأمر عند حدّ المطالبات، ففي 19 أكتوبر 1952، وفي مدراس، بدأ رجل يدعى بوتي سريرامولو صياماً عن الطعام حتى الموت من أجل المطالبة بولاية أندرا لمتحدّثي اللغة التيلوجوية[5]. وتوفي الرجل بعد صيام استمرّ 58 يوماً. وبوفاة بوتي سريرامولو انفتحت أبواب الجحيم في ولاية أندرا التي غرقت في فوضى عارمة، هوجمت، خلالها، المصالح الحكومية، وأوقفت القطارات وقتل العديد من المتظاهرين، حتى رضخ نهرو إلى مطالبهم، وأعلن، مضطراً، قيام ولاية أندرا الجديدة التي حضر مراسم الاحتفال بقيامها في 1 أكتوبر 1953.

كان نهرو يعرف أن هذا القرار لن ينتهي عند ولاية أندرا براديش، بل إنه سيعطي دفعة قوية

لمطالب الجماعات اللغوية الأخرى، وسرعان ما حدث ما كان يخشاه نهرو، حيث ازدادت حدّة المطالب، ولم تسلم منها حتى بومباي، العاصمة الاقتصادية للبلاد، والمدينة الأكثر تنوّعاً في الهند، فقد طالب متحدّثو الماراثية بضم بومباي إلى ولاية مهاراشترا. وهو المطلب الذي أثار الجوجارتيون الذين طالبوا بأن تبقى بومباي مستقلّة عن مهاراشترا. واندلعت الاضطرابات في يناير 1956، وأغلقت المتاجر والمصانع، وتوقّفت الحافلات والقطارات، وانطلقت المسيرات التي أحرقت دمية نهرو وداستها بالأقدام، وعمّت الفوضى وحالات السلب والنهب والسرقة، وأصيبت المدينة بالشلل التام. وعرف نهرو أن "مسألة اللغة أخطر حتى من الخطر الناجم عن التقسيم"[6] في العام 1947، وأن اللغة كانت علامة على هوية أكثر عمقاً من الدين والطبقة الاجتماعية.

وعلى الرغم من التشابه من حيث امتداد الاستعمار الزمني في كل من الهند والجزائر، ومن حيث أهمية البلدين المستعمَرين بالنسبة لكل من بريطانيا وفرنسا الاستعماريتين، إلا أن التنوّع اللغوي في الجزائر لا يصل إلى القدر الذي كان عليه في الهند، إلا أن هذا الاختلاف لم يمنع صراع الهويات الذي اندلع على أساس اللغة. فخلال سنوات النضال من أجل الاستقلال لم تكن أصوات المطالبة بلغة أخرى غير العربية مسموعة، وكانت جبهة التحرير الوطني الجزائرية، قائدة الاستقلال، موحّدة على أساس المطالبة باستقلال الجزائر. وعلى الرغم من اختلاف مسار حزب المؤتمر الهندي عن مسار جبهة التحرير الجزائرية، فإن اللغة مثّلت، في المسارين، عامل انقسام داخل الحزب وداخل الدولة. وإذا كانت انقسامات اللغة قد أطلّت برأسها عشية استقلال الهند مباشرة، فإنها قد تأخّرت في الجزائر إلى حوالي عشرين سنة بعد الاستقلال، أي في أبريل 1980، واستمرّت نشطة وحيّة حتى اليوم. والمتابع للشأن الجزائري سيكتشف أن موضوع الاعتراف باللغة مازال حيّاً وموضوعاً للجدل حتى هذه اللحظة. وربما كان موضوع الجدل هذه الأيام هامشياً؛ لكونه يتصل بالحرف الذي تكتب به اللغة الأمازيغية[7]، حيث هناك ثلاثة آراء تتصارع: رأي يرى أن تكتب بالحرف العربي تحقيقاً للوحدة الوطنية مع العربية، ورأي ثان يرى أن تكتب الحرف اللاتيني ضماناً لعالميتها كلغة مستقلّة، ورأي ثالث يرى أن تكتب بالحرف التيفيناغ باعتباره الحرف الأصلي لهذه اللغة.

إلا أن هذه القضية الثانوية إنما تكشف عن جزء بسيط من تبعات قضية أعمق وأخطر، اندلعت أحداثها الأولى في أبريل 1980 في منطقة القبائل والجزائر العاصمة، وهي ما صار يعرف بـ"الربيع الأمازيغي"، حيث انطلقت المسيرات والاحتجاجات الصاخبة، وسقط الضحايا في سبيل المطالبة باعتراف الدولة باللغة الأمازيغية كلغة رسمية في الجزائر. واستمرّ التوتّر يعلو ويخبو من أحداث أبريل 1980 إلى إضراب المحفظة نهاية 1994، إلى الربيع الأمازيغي الأسود في 2001، إلى المسيرة الحاشدة من تيزي وزو باتجاه العاصمة في العام نفسه، حتى اعترفت الدولة باللغة الأمازيغية كلغة وطنية بعد تعديل الدستور في العام 2002. وبدأ تلفزيون الجزائر الرسمي، على إثر هذا الاعتراف، يبثّ نشرات إخبارية باللغة الأمازيغية، كما ظهرت قناة تلفزيونية حكومية ناطقة بالأمازيغية. وفي ديسمبر 2017، كلّف الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة الحكومة بالعمل على تعميم تعليم واستعمال اللغة الأمازيغية، والإسراع في إنشاء الأكاديمية الجزائرية للغة الأمازيغية، لتعزيز الوحدة والاستقرار الوطنيين، وذلك في أعقاب موجة احتجاجات شهدتها ولايات بجاية والبويرة وتيزي وزو،

وجدل سياسي وإعلامي كبير، على خلفية رفض البرلمان زيادة مخصّصات وزارة التربية الموجهة لتعليم اللغة الأمازيغية[8].

ليست هذه الحالة خاصة ببلدان العالم الثالث في آسيا وافريقيا، بل هناك دولة أوروبية تمثّل حالة نموذجية لسياسات لغوية صراعية تكاد تهدّد كيان الدولة ووحدتها، وهي حالة بلجيكا. ففي بلجيكا من السهل أن تُدعى أوركسترا أو فرقة مسرحية يابانية أو هندية لتقديم عروضها في إقليم الوالون الناطق بالفرنسية، أو إقليم الفلاندرز الناطق بالهولندية، إلا أنه من الصعب أن تدعى فرقة فلمنكية في الوالون، أو فرقة والونية في الفلاندرز. فهذه مسألة حسّاسة جداً، ومن المرجّح أنها لو حصلت، فإنها لن تمرّ دون صراع.

ولهذه الحالة من السياسات اللغوية الصراعية في بلجيكا تاريخ حديث، يرجع إلى العام 1830 عندما تأسّست مملكة بلجيكا كدولة حديثة. وصادف، إبان التأسيس، أن كان الناطقون بالفرنسية هم المسيطرين على الدولة حتى بين النخبة الفلمنكية. وعلى الرغم من أن الدستور البلجيكي لم يكم ينصّ على لغة رسمية للدولة، إلا أن القانون الذي أقرّ في 19 سبتمبر 1831 نصّ على أن اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية للقوانين البلجيكية. وهكذا، وبقوة القانون أصبحت لغة ما لا يقل عن 50% من السكان – أي الفلمنكيين الناطقين بالهولندية – "لغة ثانية وثانوية في البلاد"[9]، فيما أصبحت لغة إقليم الوالون – أي اللغة الفرنسية – لغة البلاد كلها.

حدث كل هذا عندما كانت الفلمنكية أقرب ما تكون إلى لهجة منها لأن تكون لغة معيارية كما هو الحال مع الفرنسية، كما أن النخبة الفلمنكية كانت، آنذاك، فرانكفونية التوجّه مثلها في ذلك مثل البورجوازيين والنبلاء الوالونيين. بمعنى أن "قادة بلجيكا الجديدة كانوا كلهم فرانكفونيين، وكان يبدو أنه من الطبيعي أن تكون الفرنسية هي اللغة الرسمية الحصرية للأمة الجديدة"[10]. وقد تعزّزت هذه الهيمنة الفرنسية عبر فَرْنَسة التعليم والإدارة والقضاء. وهو ما تسبّب في استثارة ردة فعل فلمنكية كانت تمثّل البداية الأولى لإحساس طاغٍ بالهوية الثقافية المؤسَّسة على اللغة. وقد بدأت ردة الفعل ضد الهيمنة الفرنسية مع "أقلية صغيرة وحالمة من أبناء الطبقة الوسطى والمستخدمين المدنيين"[11]. ولاحقاً سميت هذه الحركة باسم "الحركة الفلمنكية" Flemish Movement، وهي الحركة التي جعلت اللغة في القلب من نضالها من أجل الاعتراف وتعزيز الشعور القومي الفلمنكي. وقد كُلل نضال هذه الحركة بالنجاح أواخر القرن التاسع عشر، وتحديداً في العام 1898، حيث كان الضغط السياسي لهذه الحركة أقوى، مما أجبر البرلمان على إقرار "قانون المساواة" الذي وضع الهولندية والفرنسية على أرضية متساوية، بحيث أصبح "كل مواطن حراً في اختيار اللغة التي يريدها كلغة للتعليم والإدارة والقضاء...إلخ"[12].

إلا أن هذا القانون لم ينه المشكلة بالكامل، كما أنه لم يصيّر الهولندية لغة رسمية على غرار الفرنسية. وعلى هذا، فسرعان ما عادت الفرنسية لتفرض نفسها كلغة رسمية أساسية بين النخبة البلجيكية. مما أدّى إلى مواصلة الضغط للمطالبة بقانون للأقاليم، بحيث تكون الهولندية هي اللغة الرسمية في إقليم الفلاندرز ذي الأغلبية الفلمنكية، فيما تكون اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية لإقليم الوالونيا ذي الأغلبية الوالونية الناطقة بالفرنسية. وعلى الرغم من معارضة النخبة الفرانكفونية لمبدأ تقسيم البلاد إلى أقاليم، إلا أن سلسلة من القوانين

اللغوية قد تمّ إقرارها خلال العامين 1928 و1932. وانتهت هذه المرحلة بإقرار مبدأ الأقاليم حيث قسّمت بلجيكا إلى ثلاثة أقاليم رسمية: الفلاندرز للناطقين بالهولندية، والوالونيا للناطقين بالفرنسية، وإقليم ثالث للأقلية الناطقة بالألمانية، فيما بقيت العاصمة بروكسل ثنائية اللغة.

وعلى الرغم من أن هذا الحل القانوني والسياسي قد خفّض من حدة الصراع بين الجماعتين اللغويتين الأساسيتين في بلجيكا، إلا أن جذور السياسات اللغوية الصراعية قد تسبّبت في تعقيد مزمن للعلاقة بينهما. واليوم، أصبحت "الفجوة بين المجموعتين أوسع، حيث أصبح الفلمنكيون يتجهون أكثر نحو الثقافة الهولندية"[13]، بل إن أصوات الانفصال مازالت تسمع بين الفلمنكيين الذين يطالبون بتكوين دولتهم الخاصة، الأمر الذي يهدّد بتفكيك دولة بلجيكا الاتحادية.

2. اللغة المنسيّة والمُهملة:

على خلاف حالة الهند والجزائر وبلجيكا التي تتصدّر فيها اللغة واجهة الأحداث والصراعات في إشارة كاشفة عن مدى العمق الذي تتمتّع به اللغة كمحدّد أو مصدر أساسي من مصادر هوية الأمة، فإن المجتمعات البشرية مليئة بمواقف وحالات مناقضة لهذه الحالة. لنتأمّل هذه الحالات:

الحالة الأولى: للروائية العراقية إنعام كجه جي رواية بعنوان "الحفيدة الأمريكية"، وتدور حول زينة، وهي شابة عراقية تعود إلى العراق للعمل كمترجمة للجيش الأمريكي الذي يتواجد هناك. هاجرت زينة من العراق مع أسرتها إلى أمريكا، إلا أنها لم تنس لغتها الأم، فقد كانت تقرأ بالعربية، وتسمع أغاني كاظم الساهر وأم كلثوم وفيروز، ثم هي تعود إلى العراق كمترجمة بين العربية والإنجليزية. أصبحت زينة أمريكية من حيث الجنسية، إلا أنها لم تنس لغتها الأم كما حدث مع الحفيدة الإيرانية التي سأتحدّث عنها هنا. ولهذه الحفيدة حكاية مختلفة، وهي حكاية سمعتها شفاهة من أحد الصحفيين البحرينيين مساء التاسع من يناير 2019. يذكر هذا الصحفي أنه سافر مع أسرته من أجل الاجتماع بأقارب له يقيمون في إمارة دبي. وهناك التقى بعجوز إيرانية تقارب الثمانين من عمرها، إلا أنها كانت تتحدّث العربية بلهجة بحرينية لا تشوبها لكنة. عرف لاحقاً أن المرأة كانت بحرينية هاجرت إلى لنجة مع أسرتها منذ سنوات طويلة، واستقرّت هناك مع أفراد أسرتها، ثم تزوجت وأنجبت وصار لها العديد من الأولاد والأحفاد، ومن بين هؤلاء الحفيدة الإيرانية، بطلة حكايتي هنا. وتصادف أن اللقاء الذي تمّ في دبي جمع ثلاثة أجيال من هذه الأسرة: الجدة العجوز التي تتحدّث العربية باللهجة البحرينية بطلاقة، والبنت التي كانت تبلغ الخمسين من عمرها آنذاك، وقد كانت تتحدّث الفارسية مع عربية مهلهلة وبلكنة فارسية بارزة، والحفيدة الإيرانية التي لم تكن تحسن النطق بكلمة عربية واحدة، أصبحت إيرانية بالكامل جنسية ولغةً. وهنا تختلف هذه الحفيدة عن زينة، الحفيدة الأمريكية في رواية إنعام كجه جي، التي عاشت في أمريكا، وحصلت على جنسيتها، إلا أنها لم تنس لغتها العربية، وبقيت موزّعة بين الإنجليزية والعربية.

الحالة الثانية: إلا أن حالة الحفيدة الإيرانية لا تختلف عن أحفاد الديربال واليدين الذين اضطرّوا إلى تعلّم لغات أسلافهم بعد أن شارفت على الانقراض. وفي العادة يتعلّم الإنسان البالغ لغات أخرى غير لغته الأم التي يكتسبها أثناء التنشئة الاجتماعية في الصغر، إلا أن هذه الحالة التي نظنها مألوفة ليست هي حالة متحدّثي لغتي ديربال

Dyirbal ويدين Yidin، وهما لغتان لجماعتين قبليتين من السكان الأصليين في الغابة الاستوائية في شمال شرق منطقة كوينزلاند الأسترالية. يذكر روبرت وليم ديكسون، وهو أستاذ اللغة بجامعة جيمس كوك الأسترالية، أنه قضى أربعين عاماً في العمل الميداني لدراسة هاتين اللغتين وتوثيقهما توثيقاً كاملاً بعد أن "كانت مناطق تلكما القبيلتين وثقافتيهما قد تعرّضت للتدمير بفعل الغزو الأوروبي"[14]. ويذكر، كذلك، أنه شاهد آخر جيل من متكلمي اللغتين الذين كانوا يُلحون عليه من أجل توثيق لغتيهما توثيقاً كاملاً. لم يبق اليوم من متحدّثي هاتين اللغتين أحد، لا لأنهم انقرضوا عن بكرة أبيهم، بل لأن أحفادهم أصبحوا يتحدّثون الإنجليزية ونسوا لغة أسلافهم. ومن المفارقات أن هؤلاء الأحفاد الذين نسوا هاتين اللغتين التقليديتين، يحاولون هذه الأيام - أي في العام 2016 وهو العام الذي صدر فيه كتاب روبرت ديكسون - تعلّم هاتين اللغتين المنسيتين، مستعينين، في ذلك، بالتوثيق والدراسات التي نشرها روبرت ديكسون. ماذا لو أن أحداً لم يوثّق هاتين اللغتين؟ هل كان النسيان سيطويهما إلى الأبد؟

الحالة الثالثة: ليست حالة الحفيدة الإيرانية وأحفاد الديربال واليدين حالات خاصة واستثنائية كما نظن، بل هي حالات عامة وشائعة حول العالم، فقد تجدها لدى حفيد تركي يعيش في ألمانيا، وآخر جزائري يعيش في فرنسا، وثالث ياباني يعيش في أمريكا، ورابع هندي يعيش في بريطانيا. بل قد تجد هذه الحالات حتى داخل البلد الأم، وخاصة بين تلاميذ المدارس الخاصة، فقد تجد بحرينياً أو كويتياً أو إماراتياً يعيش في البحرين أو في الكويت أو في دبي، إلا أنه لا يتحدّث العربية. إن اعتماد لغة أجنبية – مثل اللغة الإنجليزية، وأحيانًا الفرنسية – كلغة أساسية في المدارس الخاصة والتعليم الجامعي وحتى الحياة العامة في المطاعم والفنادق والمطارات في كثير من دول العالم العربي، سيقود لا إلى تعميم الإحساس بأن اللغة مجرد أداة تواصل، بل إلى إهمال اللغة العربية الأم، والنظر إليها بسلبية على أنها لغة عتيقة وعفى عليها الزمن، وأنها لا تصلح إلا لخطب الجمعة ونشرات الأخبار. يذهب عزمي بشارة إلى أن هذه الحالة ستؤسّس "لتحوّل الفروق السياسية والطبقية والاجتماعية إلى خلاف حضاري. وهذا الأخير يحوّلنا إلى أكثر من شعب في البلد نفسه"[15].

3. هل اللغة مسألة حياة أو موت أم مجرد أداة تواصل؟

لكن السؤال الذي يطرح نفسه بعد عرض هذه الحالات هو: ما الذي يجعل اللغة تكون، مرةً، محدّداً أساسياً لهوية أمة ما، ومحوراً أساسياً للصراع بين الأمم، وتكون، مرة أخرى، مسألة هامشية ومجرد أداة تواصل قابلة للنسيان بكل يسر وسهولة؟ ما الذي جعل اللغة، في السياق الهندي والجزائري والبلجيكي، عامل ربط بين جماعة تكون مستعدة للانخراط في صراع حتى لو كان دموياً من أجل الاعتراف بلغتها التي قد تكون، على الطرف الآخر، عامل تفريق بينها وبين الآخرين؛ بحكم أن اللغة سترسم حدود الانقسام الفاصلة بينها وبين الجماعات اللغوية الأخرى؟ وفي المقابل كيف حصل ونست الحفيدة الإيرانية وأحفاد الديربال واليدين وتلاميذ المدارس الخاصة العرب هنا وهناك، كيف حصل ونسي هؤلاء جميعاً لغات أسلافهم دون الحاجة إلى خوض صراع من أي نوع؟ إذا كانت اللغة هي اللغة في كل هذه الحالات، فما العامل الذي يتدخّل ليجعل اللغة محدداً أساسياً لهوية الأمة حيناً، ثم يختفي لتتحول اللغة إلى مسألة هامشية أو مجرد أداة تواصل عَرضية حيناً آخر؟

سبق لأمين معلوف أن تناول هذه القضية حين تحدّث، في كتابه ذائع الصيت "هويات قاتلة"، عن الظروف والتعقيدات التي تجعل محدّداً ما مصدراً أساسياً لهوية جماعة من الجماعات، وهو يركّز على عامل التهديد والاستهداف الذي يتعرّض له محدّد دون آخر من محدّدات هذه الجماعة او تلك. وبحسب معلوف فإن في كل شخص مجموعة من الانتماءات المتعايشة أو المتصارعة على أسس عديدة مثل الدين واللغة والوطن ولون البشرة والطبقة الاجتماعية والانتماء الأيديولوجي وحتى الميول الجنسية، إلا أن كثيراً من الناس يضعون هذه الانتماءات في سُلّم تراتبيات يبدأ بما يشعرون ويعتقدون أنه أساس هويتهم دون بقية الانتماءات الأخرى. أما كيف ومتى وما الظروف التي تجعل اللغة دون الدين أو الوطن أو غيرهما عاملاً أساسياً في تحريك الصراع بين الجماعات، فهذه مسألة معقّدة، إلا أن العامل الأساسي فيها هو التهديد، فـ"حيث يشعر الناس أنهم مهددون في عقيدتهم، يبدو أن الانتماء الديني هو الذي يختزل هويتهم كلها، ولكن لو كانت لغتهم الأم ومجموعتهم الإثنية هي المهددة لقاتلوا بعنف ضد أخوتهم في الدين"[16]. وعلى هذا الأساس يمكن فهم الصراع بين الأكراد والأتراك، والصراع بين الهوتو التوتسي، والصرب والكروات والبوسنيين، والباكستانيين والهنود إبان التقسيم، والكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا وغيرهم.

إن التأمل في هذه الحالات التي يأتي أمين معلوف على ذكرها يكشف أن تصدير محدّد ما ليصبح هو عنوان هوية الأمة كلها، إنما يعتمد على السياقات الخارجية، وعلى الآخرين الذين يستهدفون هذا المحدّد دون ذاك، فيغامرون بتحويله، في نفوس أصحابه المستهدفين، إلى المحدّد الأساسي لهويتهم. بمعنى أننا "نميل في كثير من الأحيان لأن نتعرّف على أنفسنا في انتمائنا الأكثر عرضة للخطر"[17]، أي إننا نتعرّف على أنفسنا بطريقة سلبية ومن خلال الآخرين وتصرفاتهم تجاهنا. لكن الوضع يبدو مختلفاً في الحالة الهندية، فما التهديد الذي يواجهه متحدّثو الماراثية وهم الأغلبية في مهاراشترا؟ وما الخطر الذي تعرّض له متحدّثو التيلوجوية في أندرا براديش وهم الأغلبية؟ الحاصل أنه لم يكن هناك أي نوع من التهديد، بل إن المحرّك وراء كل هذه الحالات هو نوع من النوازع الانفصالية والأنانية غير الجريحة، ومع هذا فإنها ترمي إلى امتلاك هذا الإقليم أو ذاك دون الآخرين، في تعبير جليّ عن إثبات الوجود المهيمن، وكأن لدى هؤلاء حاجة ملحة للإعلان، أمام الملأ وأمام أنفسهم والآخرين، بأنهم موجودون، بل مهيمنون وأصحاب سيادة. وفي هذه الحالة تتحوّل هذه المطالب إلى عامل تهديد للآخرين الذين لم تكن اللغة محدّداً أساسياً لهويتهم بالضرورة، إلا أنهم يجدون أنفسهم مضطرين إلى الدفاع عن وجودهم الذي أصبح مهدّداً، لا لشيء سوى أن لغتهم لن تكون هي اللغة الرسمية في هذا الإقليم أو ذاك، وفي هذه الدولة أو تلك.

وإذا كان تهديد اللغة وتعرّضها للخطر هو العامل الأساسي الذي يحوّلها إلى محدّد أساسي لهوية أصحابها، فكان من الأولى أن تكون اللغات الأم هي المحدّد الأساسي لهويات كل من الحفيدة الإيرانية وأحفاد الديربال واليدين وتلاميذ المدارس الخاصة الذين نسوا لغات آبائهم، أقول إنه كان أولى بهؤلاء أن يجعلوا لغاتهم الأم هي المحدّد الأساسي لهوياتهم؛ لأن تعريض اللغة إلى ظروف تنتهي بها إلى النسيان والانقراض هو، في الحقيقة، أكبر تهديد يواجه اللغة. والحاصل أن الذي يجعل اللغة عاملاً مهماً في تحريك الصراعات أو مسألة هامشية، إنما يكمن في مدى الأهمية التي تكتسبها اللغة في هذا السياق أو ذاك،

بمعنى أن السبب يكمن في "القرار" - وربما كان الأمر أكبر من كونه قراراً واعياً - الذي يتخذه الأفراد والجماعات في كيفية النظر والتعامل مع لغاتهم ولغات الآخرين على أنها مسألة وجودية مهمة، ومسألة حياة أو موت، ولا مجال للتهاون فيها، أو إنها، في المقابل، مجرد أداة تواصل هامشي، وأحياناً متخلّفة وغير مأسوف على نسيانها. والظروف والسياقات التي جعلت هؤلاء يتخذون هذا القرار، بوعي أو بلا وعي، قد تصيّر اللغة، في لحظات وظروف مغايرة، إلى مسألة هامشية، فيما تجعل من الدين أو الطبقة أو الأيديولوجيا أو الوطن ...إلخ، المحدّد الحاسم والأساسي وعنوان الهوية بلا منازع. وثمة مصادفات لا دخل لنا فيها، فمن الصعب على أمازيغي ولد في ولاية تيزي وزو في الجزائر أو متحدّث باللغة الماراثية في مهاراشترا في الهند، أو فلمنكي من إقليم الفلاندرز أن يتعامل مع لغته الأم كما يتعامل عربي بحريني يدرس في مدرسة خاصة، ويعيش في بيت يتحدّث فيه الأب والأم والأخوان والأخوات اللغة الإنجليزية كلغة بيتية أساسية.

ويكفي أن تتأمل الموقف من اللغة العربية بين العرب أنفسهم، ولا داعي للمقارنة بين تلاميذ المدارس الخاصة اليوم، وأصحاب التوجهات القومية المتعصبة، بل لنذهب إلى السنوات الأبعد التي شهدت تبلور الفكر القومي العربي مع زكي الأرسوزي وعبد الله العلايلي وقسطنطين زريق وساطع الحصري وآخرين. ولنبدأ مع هذا الأخير. فعلى خلاف مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي، فإن ساطع الحصري يمتلك وعياً تاريخانياً بفكرة القومية، بمعنى أنه يعي أن القومية رابطة مدنية (أي إنها لا عرقية ولا دينية)، وهي رابطة حديثة نشأت مع ظهور مبدأ القوميات والدول القومية في أوروبا في القرن التاسع عشر، ثم انتشرت في الشرق بين مجموعة الشعوب الناطقة باللغة العربية. وبتعبير الحصري، فمن "المعلوم أن فكرة القوميات لم تصبح من القوى المؤثرة في السياسة الدولية إلا بعد مرور مدة طويلة، تزيد عن نصف قرن [أي بعد نصف قرن من العام 1776]"[18]. وهذا على خلاف الفكرة التي روّج لها ميشيل عفلق وحزب البعث والتي تذهب إلى أن القومية مسألة تذكّر، وبعث، وإحياء لوحدة كانت قائمة بين العرب في الماضي السحيق، وهي خالدة في المستقبل.

ومع هذا الوعي التاريخاني بفكرة القومية، إلا أن ساطع الحصري، مثله في ذلك مثل معظم القوميين العرب، يضع اللغة العربية في سلم أوليات محدّدات هوية الشعوب العربية. وهو يرى أن الأمة التي تنسى دينها يمكن أن تبقى أمة، والأمة التي تفقد استقلالها السياسي تبقى أمة، بل إن "الأمة التي تنسى تاريخها" تبقى أمة حتى لو كانت فاقدة الوعي والشعور، "ولكن الأمة إذا ما فقدت لغتها، وصارت تتكلم بلغة أمة أخرى، تكون قد اندمجت في تلك الأمة، وفقدت كيانها الخاص، وزالت من عالم الوجود"[19]. وبهذا المعنى، فإن اللغة لم تعد على المستوى ذاته من الأهمية مع الدين والعرق والتاريخ والوطن والانتماء الأيديولوجي والميول الجنسية ...إلخ، لا، بل أصبحت لها الأولوية والأهمية المطلقة، وبهذا تصبح المسألة مسألة حياة أو موت، فبقاء اللغة يعني البقاء في عالم الوجود والحياة، وفقدانها يعني الفناء والعدم والموت الحتمي.

إلا أنه لا ينبغي أن يغيب عنا التنبّه إلى أن هذه فكرة من أفكار ساطع الحصري والقوميين العرب قبله وبعده، وربما تمكّن هؤلاء (أو لم يتمكّنوا) من إيقاظ إحساس الشعوب العربية بأهمية اللغة في وجودهم، وتحويلها من فكرة في الرأس إلى معطى حقيقي على الأرض، إلا أن هذه تبقى مجرد فكرة،

وهي فكرة تتنافس مع أفكار أخرى متعارضة ومتصارعة. ففي الوقت الذي كان فيه دعاة الفكر القومي العربي يؤصّلون للأهمية المطلقة للغة في تكوين كيان الأمة العربية، كان آخرون كثر يروّجون لأفكار متعارضة تقول بأهمية الدين الذي يعيد ترسيم حدود هوية الأمة بصورة مغايرة (فكرة الجامعة الإسلامية لدى جمال الدين الأفغاني، وفكرة الوطن الإسلامي لدى الإخوان المسلمين على سبيل المثال)، أو تذهب إلى الاعتقاد بأن الوطن السياسي أي الدولة القومية (الوطنية) هي المحدّد الأساسي لهوية الأمة. وقد كان أحمد لطفي السيد، على سبيل المثال، يشدّد على مصرية المصريين، وأن الوطن الذي اسمه مصر هو القيمة العليا التي ينصهر داخلها كل المصريين مهما كانت أصولهم عربية أو تركية أو شركسية؛ ولهذا "يجب أن نتمسك بمصريتنا، ولا ننتسب إلى وطن غير مصر، مهما كانت أصولنا حجازية أو سورية أو شركسية أو غيرها"[20]. وساطع الحصري نفسه كتب مقالة ينتقد فيها إحسان عبد القدوس على مقالة كتبها هذا الأخير بعنوان "مصر أولاً"[21]؛ لأن العروبة ينبغي أن تكون أولاً، لأن "العروبة فوق الجميع"[22]، فوق السوري، والمصري، والعراقي، والمغربي... إلخ. والحصري يعرف جيداً أن هذه فكرة (أي الفكرة القائلة بأن الوطن السياسي أولاً على غرار دعاة القومية المصرية، والقومية السورية، والقومية اللبنانية) تبنّاها كثيرون في مصر ولبنان وسوريا من لطفي السيد وسلامة موسى وطه حسين إلى أنطون سعادة وسعيد عقل ويوسف الخال وآخرين.

وفي هذا لا تختلف اللغة كثيراً عن أي محدد من محددات الهوية الأخرى، فالسياقات والظروف والمعطيات التي تجعل من الدين أو الوطن أو اللون... إلخ المحدّد الأساسي لهوية جماعة ما، لا تختلف كثيراً عن تلك السياقات والظروف والمعطيات التي جعلت من اللغة محدّداً أساسياً لهوية جماعة ما. كما أن هذه السياقات والظروف والمعطيات هي ذاتها التي يمكن أن تجعل -في حال تغيّرها- من كل تلك المحدّدات مجرد مسألة هامشية وعامل اختلاف لا يثير أي اعتبارات كبيرة وخطيرة.

الإحالات والهوامش:

1 - Benedict Anderson, Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism, (London/New York: Verso, Revised Edition, 2006), p. 24

2- راماتشاندرا جوها، الهند ما بعد غاندي: تاريخ أكبر ديمقراطية في العالم، ترجمة: لبنى عماد تركي، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ط:1، 2017)، ص243

3- انظر: المرجع نفسه، ص244

4- المرجع نفسه، ص246

5- انظر هذه القصة في: المرجع نفسه، ص251

6- المرجع نفسه، ص261.

7- كمثال على هذا الجدل، فقد أثار رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بو عبد الله غلام الله، جدلا بعد تصريحه بأنه لن يرضخ لدعاة كتابة اللغة الأمازيغية بالحرف اللاتيني، وأن هذا الرفض يعود إلى العلاقة الوثيقة والمتينة الموجودة بين اللغتين العربية والأمازيغية، "إذ لا يجوز كتابة الأخيرة بحرف آخر غير العربي."، صحيفة الشروق الجزائرية، العدد: 6054، الأحد 16 يناير 2019، ص3

8- صحيفة العربي الجديد، 28 ديسمبر 2017، على الرابط التالي:

https://www.alaraby.co.uk/society/2017/12/28/بوتفليقة-يعتمد-ثلاثة-قرارات-لتهدئة-غضب-أمازيغ-الجزائر

9 - Ludo Beheydt, **The Linguistic Situation in the New Belgium**, in: Sue Wright (ed), Languages in Contact and Conflict: Contrasting Experiences in the Netherlands and Belgium, (Clevedon; Multilingual Matters Ltd, 1995), p. 50

10- المرجع نفسه، ص50

11- المرجع نفسه، ص51

12- المرجع نفسه، 51

13- المرجع نفسه، ص54

14- روبرت وليم ديكسون، هل بعض اللغات أفضل من بعض؟ ترجمة: حمزة بن قلان المزيني، (عمّان: كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط:1، 2018)، ص19

15- عزمي بشارة، أن تكون عربيًا في أيامنا، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط:1، 2009)، ص52

16- أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة: نبيل محسن، (دمشق: ورد للطباعة والنشر والتوزيع، ط:1، 1999)، ص16

17- المرجع نفسه، ص27

18- ساطع الحصري، آراء وأحاديث في القومية العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط:2، 1985)، ص54

19- المرجع نفسه، ص48

20- مجلة المصوّر، (5 مايو 1950)، نقلاً عن: المرجع السابق، ص74

21- المرجع نفسه، ص84

22- المرجع نفسه، ص49